تقديم

ولد جان ماري جويو في لاغال في الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٨٥٤. وكانت أمه — التي ألّفت كتبا مشهورة كثيرة في التربية تحت هذا الاسم المستعار: ج. برينو — الموجه الأول لدراسته. ثم تولى الإشراف على دراسة الفيلسوف الفرنسي الكبير ألفريد فوييه الذي يمت إليه بقرابة نسب، والذي أصبح بعد ذلك زوجا لأمه. وقد ظهر نبوغ جويو في سن مبكرة جدا. فشغف بالشعر والفلسفة شغفاً عظيما. وكان يميل إلى كورني وهوجو وموسيه وأفلاطون وكنت وإبكتيت. وتعمق الفلسفة اليونانية ولما يزل في سن المراهقة. ولم يجاوز السابعة عشرة من عمره، حتى كان قد نال شهادة الليسانس، وترجم كتاب إبكتيت. وكان كثير الشغف بالفلسفة الرواقية، حتى لقد أخذ بها في حياته العملية على شيء من التلطيف.

ولما بلغ التاسعة عشرة أجرت أكاديمية العلوم الاخلاقية مسابقتها المشهورة، فتقدم برسالته في «الأخلاق النفعية منذ إبكتيت حتى المدرسة الانجليزية المعاصرة»، فنالت الرسالة أعظم التقدير، وتوجتها الأكاديمية. وفي السنة التالية، أي في عام ١٨٧٤، كلف بتدريس الفلسفة في ليسيه كوندورسيه.

وفي هذه الفترة — وقد أرهقه العمل على ما يظهر — شعر بالأعراض الأولى لذلك الضعف التدريجي، الذي إن استطاع أن ينقص قواه الجسمية شيئا بعد شيء، فانه لم ينل من قواه الروحية، ولا حتى من خصبه الفكري. وغادر باريس إلى الجنوب، تشدداً للجو الملائم لصحته. فتوجه أول ما توجه إلى بو ومن ثم إلى بيارتس، فنيس، فانتون. وقد ردت إليه هذه الرحلة بعض القوة والأمل، وأتاحت له أن يشرع بكتابة طائفة من المؤلفات الكبيرة. وكانت هذه الفترة حافلة

بالعمل الدائب والتقدم المستمر . وفيها وصل ، على ضعف صحته ، إلى تمام النضج الذى لا يقاس بالسن بل بقوة العبقرية . وفى هذه الأثناء طبع كتابه « أخلاق أبيقوروس» وطبع كذلك كتابه «الاخلاق الانجليزية المعاصرة». وما هى إلا مدة وجيزة حتى أصدر ديوانه « أشعار فيلسوف » وكتابه « مسائل فلسفة الجمال المعاصرة » . وبعد ذلك بدأت أعماله الفلسفية الصرفة . فظهر كتابه « الأخلاق » الذى نقدمه الآن بالعربية ، ثم « زوال الدين فى المستقبل » الذى أثار لغطاً كبيراً ومناقشات حادة. وبعد ذلك بقليل كتب «الفن من وجهة النظر الاجتماعية» وأخيراً كتب « التربية الوراثة » . ولم يُطبع هذان الكتابان إلا بعد موته ، وكذلك كتابه « نشأة فكرة الزمان »

وكانت هذه الآثار على وفرتها وخصوبتها تبدو له شيئاً يسيراً بالنسبة إلى ما كان ينوى عمله .

والفكرة المسيطرة التى يشرحها جويو فى نتائجه الرئيسية هى أن الحياة مبدأ مشترك للفن والأخلاق والدين . وفى رأيه أن الحياة العنيفة — وهذه هى الفكرة المولّدة لمذهبه كله — تنطوى على رحابة وخصب وكرم . وأن الحياة السليمة تجمع بصورة طبيعية بين وجهة النظر الفردية ووجهة النظر الاجتماعية اللتين نشأ من اختلافهما . الظاهر ما وقعت فيه النظريات النفعية فى الفن والأخلاق والدين، من خطأ وضلال. « إن المهمة العظمى التى تقع على القرن التاسع عشر هى أن يبرز الجانب الاجتماعى فى الفرد الانسانى ، وفى الكائن الحى على وجه العموم » هذا الجانب الذى جهله المذهب المادى الأنانى فى القرن الثامن عشر . فاذا أمكن أن نبرز هذا الجانب الاجتماعى من الحياة الفردية ، رأينا الفن والأخلاق يقومان بعد ذلك على أساس وطيد . لقد انتهى القرن الثامن عشر بالنظريات الأنانية التى قال بها هلفتيوس ، وفولنى، وبانثام ، نتيجةً لتلك المادية الساذجة التى أخذ بها لامترى بل وديدرو . حتى إذا جاء القرن التاسع عشر ، واتسع العلم ، ورهفت المادة ، رأينا « جهاز الساعة » الذى قال به لامترى يصبح عاجزا كل العجز عن تفسير الحياة .

وإذا بالفرد الذى كان يعد معزولا منحبساً فى جهازه ، يعدّ اليوم متأثراً بالغير ، متضامناً مع سائر النفوس ، قابلا لأن تحدده مشاعر غير شخصية ؛ وإذا بالجملة العصبية تُفهم اليوم على أنها مقر ظاهرات يفوق مبدؤها جسم الفرد . . . وإذا بالتضامن يسيطر على الفردية . . . إن حبس الشعور النفسى أو الأخلاقى أو الدينى لا يقل صعوبة عن حبس الحرارة أو الكهرباء .. فظاهرات الجسم والروح معدية جميعاً على حد سواء .. وهاهى ذى معرفتنا بظاهرات التعاطف العصبى أو العقلى آخذة بالازدياد يوماً بعد يوم . . وها هى ظاهرات الايحاء وتأثير التنويم تُدرس اليوم دراسة علمية . ولعل القرن المقبل أن يطلع علينا باكتشافات فى عالم الروح لا تقل عن اكتشافات نيوتن ولابلاس فى عالم المادة، فيبين لنا كيف تتجاذب العواطف، وتتعاون العقول ، وتتداخل النفوس» (١). ولعله أن يبين أن العواطف الاجتماعية ما هى إلا ظاهرات معقدة ناتجة فى جلها عن تجاذب وتدافع بين الأجهزة العصبية ، وأنها لذلك شبيهة بالظاهرات الفلكية . ولعل العلم الاجتماعى ، الذى يدخل فيه قسم كبير من الأخلاق والفن والدين، أن يصبح «ضرباً معقداً من الفلك» ، ولعله حينذاك أن يلقى ضوءاً جديداً على المتيافزياء نفسها . ذلكم هو الأمل العظيم الذى يسيطر على آثار جويو.

وترى إذن أن الاجتماع لا ينفصل عن الأخلاق ، عن الفن ، عن الدين.. فهذه الميادين جميعاً تنصب ، عند جويو ، فى مفهوم الحياة .

الفن : وقد كانت النظرية الشائعة فى الفن ، أيام عالج جويو هذه المسألة ، ترى فى الفن لعباً تقوم به ملكاتنا الفكرية ، وأنه لذلك يتناول الصورة والخيال ، لا واقع الحياة (كنت، شيللر ، وسپنسر بعد ذلك). فبين جويو أننا ، إذ نربط الفن باللعب، ونعزله عن الحقيقة والمنفعة والخير ، ونشجع بذلك على نوع من الغواية ومحبة الصورة دون المادة ، والشكل دون الجوهر ، نجهل الجانب الجدى الحيوى من الفن والأدب . فانما نحن ننشد فى الفن حياة أغنى من الحياة العادية وأعنف. فما الفن إلا حياة واسعة ، وإن اضطررنا ، مع الأسف ، إلى اللجوء إلى الصورة واللعب لبلوغ هذا الاتساع . وليس الابتعاد عن الواقع شرطاً للجمال . بل هو ، على العكس ، تضييق

(١) L' Art au point de vue sociologigue

لهذا الجمال وتحديد . إننا لنشعر ، أثناء التأمل الفني ، أن نتغلب إلى الشيء الذي نتأمله . وذلك هو السبب في عذاب الشاعر . لأنه لا يستطيع أن يتحد بالحياة الراسمة . (أنظر قصيدة للم الشاعر) . ولهذا كان الجمال الطبيعي ، في نظر جوير ، أسمى من الجمال الفني . ومن ثم كانت كافة الحواس تشارك في الاستمتاع بالجمال . فإن قدحاً من الحليب على مقربة من كوخ الراعي يمكن أن تحدث في النفس الشاعرة ما تحدثه فيها سنفونية ربيعية . إن كل أجزاء كياننا تشارك في اللذة الفنية : الادراك ، والذكرى والخيال . . .

والجمال هو الحياة التي تفتح صدرها للغير ، فتفتح لها صدرنا . . وما الجمال الفني إلا التعبير العاطفي العنيف عن هذه الحياة .

والفن إذن اجتماعي لا في غايته ونتائجه فحسب ، بل في جوهره وروحه . . إنه إشعاع من الحب ، يلهم الحب ، ويستلهمه . . . الفن العظيم هو أن يحيا المرء حياة سائر الكائنات ، ثم يعبر عن هذه الحياة بعناصر مستمدة من الواقع . وأن نحيا حياة غيرك ، أليس هذا هو الحب ؟ فليس الفنان الحقيق إذن ذلك يتأمل ، بل ذلك الذي يحب ، ثم يعبر عن حبه للآخرين . إن عاطفة الحب هي مبدأ الشعور الفني .

وكلما تقدم الزمن رأينا كل لحظة تكتسي ثوب الجمال . . وسيأتي يوم يزول فيه التفريق بين اللذيذ والجميل . فما هذا التفريق اليوم إلا نتيجة لقوة العنصر الحيواني الذي ما زال يأسر الإنسان . وسيزول كذلك التفريق بين الجانب النفعي والجانب الأخلاقي في تقدير القيم الطبيعية للحياة . . . وسنقتنع أخيراً أن الفنان لا يستطيع أن يعبر عن شيء غير حياته ، وأن قيمة آثاره مرهونة إذن بقيمة هذه الحياة — وها هي ذي آثار جويو مثال على ذلك . فما الفكرة الرئيسية التي تسيطر على كل نشاطه الأدبي ، وآرائه في الفن والأخلاق والدين ، إلا تعبير عن تلك الحياة الرحبة السمحة التي يحركها إيروس العظيم .

ولجويو ديوان شعري ، كما رأيت ، بعنوان «أشعار فيلسوف» ، قال في مقدمته له : « لن يحتفظ الشعر بمكانته تجاه العلم ، ما لم يبحث عن الحقيقة ، كالعلم نفسه ، وإن في صورة أخرى ، وطرق خاصة» . إن الشعر الحق هو الذي يستخرج العاطفة

من الفكرة ، والصورة نفسها من الجوهر ، كما تستخرج الحياة من البذرة المنبتة . ليس الشعر ما ستر فقر الفكر والشعور وراء القوافى والأصوات الجوفاء . ليس الشعر هذه الألاعيب اللفظية التى نراها لدى شعراء الانحطاط . ليس الشعر تلك « الجعجعات » الباردة ... فما كان لضخامة صوت الخطيب السخيف أن توهم أن وراءها فكراً وشعوراً .. وإنما الشعر كلام لين ، يشف ، كالبلّور ، عن الشعور الدقيق ، والفكر العميق

وقد نظم شاعرنا فى الفكر ، والحب ، والفن ، والطبيعة ، والانسانية . إلا أن القصائد التى ألهمه إياها مصير الإنسان أقوى هذه الأبواب جميعاً وأنت إذ تقرأ قصائده تحس أنك أمام نغمة شخصية أبداً ، وغير شخصية أبداً . وههنا تكن أصالة شاعرنا الفيلسوف . فلا تتمالك حين تسمعه أن تقول : إنه هو . ثم لا تلبث أن تضيف . إنه أنا مع ذلك ، إنه نحن جميعاً . . .

الأخلاق : يؤسس جويو الأخلاق على مفهوم الحياة ، بأوسع معانى هذه الكلمة ، فيزيل التعارض بين الشعورى واللاشعورى ، كما يزيل التعارض بين الأنانية والغيرية . فالحياة إنما هى حاجة إلى النماء والبقاء والإنجاب والاتساع . والغايات لا يوجدها الشعور ، وإنما تكون أولا فى اللاشعور ، ثم تظهر إلى الخارج . . . وعلم الأخلاق هو علم الوسائل التى بها نستطيع أن نبلغ الغاية التى وضعتها الطبيعة نفسها ، أعنى نماء الحياة واتساعها . وليس الواجب إلا فيضاً فى الحياة يريد أن ينفق . فهو لا يأتى عن إكراه ، أو ضغط خارجى . إنه التعبير عن قوة طافحة ، تظهر إلى الخارج فى حب وغيرية . أما الأنانية فهى « وهم » ، ونحن غيريون برغم أنفنا ، ومصلحتنا متفقة فى معظم الأحيان مع مصلحة الآخرين .

تلك هى الفكرة الأساسية التى عرضها فى كتابه « الأخلاق » . وقد ظهرت بوادرها فيما سبقه من كتب ، فى كتابه « أخلاق ابيقوروس » ، وكتابه « الأخلاق الانجليزية المعاصرة » . ومن طريف ما يروى بصدد هذا الكتاب الأخير أن سبنسر لم يكن قد نشر حين صدوره كتابه فى « مبادىء الأخلاق » . إلا أن جرأة الشباب لدى جويو (وكان يومئذ فى التاسعة عشرة من عمره) أوحت إليه

أن يستبق الزمن ، ويحاول تصور الأخلاق التى عسى أن يقول بها سبنسر استناداً إلى ما سبق أن ظهر له من مؤلفات . وذلك رغبةً من جويو فى إتمام عرضه لآراء المدرسة الإنجليزية . فلما اطلع سبنسر على الكتاب ، أرسل إليه يقول: « أستطيع أن أقول بدون مجاملة (وليست المجاملة من طبعى) أنك صورت رأيى خيراً مما كان فى وسعى أن أصوره . وما كان فى وسعى أن أتخيل أن من الممكن ، بالاعتماد على الفقرات الأخلاقية التى تحتويها مؤلفاتى المنشورة ، انشاء النظرية العامة على هذا الوجه الأكمل ... »

التربية : وقد كان جويو كثير الاهتمام بمسائل التربية، حتى أنه ألف كتباً فى القراءة أصبحت كلاسيكية فى المدارس . فلما أصبح أبآزاد اهتمامه بمسائل التربية ، وألف كتابه « التربية والوراثة » الذى لم يطبع إلا بعد موته . وقد كان الناس فى القرن الأخير يبالغون فى قيمة التربية ، حتى تساءل بعضهم (كهلفتيوس مثلا) : أليس من الممكن أن يُعلَّم النبوغ كما تعلم الفضيلة . إلا أن الأبحاث الأخيرة فى الوراثة قلبت هذا الرأى رأسا على عقب ، حتى اعتقد بعضهم أن التربية عاجزة عن أن تبدل أية صفة من الصفات التى انحدرت إلى الفرد من عرقه ، وورثها عن آبائه ، وأن المرء يولد مجرماً كما يولد شاعراً ، وأن مصيره الأخلاقى مختزن فيه منذ وجوده فى رحم أمه ، ثم يظهر بعد ذلك فى حياته لا محالة . وأنت تعلم ما لهذه المسألة من خطر عظيم ، فى الأخلاق وفى السياسة . وقد حاول جويو أن يبين نصيب كل من الناحيتين ، الوراثة والتربية ، فعرّف الوراثة بأنها عادات منحدرة إلينا من النوع ، وعرف التربية بأنها عادات يكتسبها الفرد . وتساءل عما إذا كانت قوانين الإيحاء التى تحقق منها علماء النفس وعلماء الفسيولوجيا ، والتى لاتزال نتائجها مجهولة ، عما إذا كانت هذه القوانين لا تدخل عنصراً جديداً فى المشكلة ، وتغير حدود السؤال نفسه ! ولعل جويو أول من أشار إلى الشبه العميق بين الإيحاء والغريزة ، وإلى إمكان استخدام الإيحاء فى التربية كمصحح للغرائز غير السليمة ومقوّ للغرائز السليمة . فاذا كانت التربية مجموعة من الإيحاءات المنظمة المتوافقة أمكن أن يكون لها تأثير عظيم سواء من الناحية النفسية ومن الناحية الفيزيولوجية.

وقد تابع جويو هذه الفكرة فى نتائجها كلها ، فدرس أولا التربية الأخلاقية ، ثم التربية الجسمية ، فالتربية العقلية ، وكان كتابه حافلا بالنظرات الجديدة . وكان هذا الكتاب إذن بحثاً فى الوسائل التى نستطيع بها أن نصلح الوراثة ، ونوجد وراثة جديدة . ويرى جويو أن على نظام التربية أن يتجه إلى المحافظة على العرق ، والعمل على تقدمه . فبالتربية انما عملت الأديان على صيانة الشعب المختار ، وحماية التراث القومى . فكذلك يجب أن يكون هدف التربية الحديثة .

التربية والدين : والمسألة الدينية مرتبطة ، عند جويو ، بمسألة الأخلاق ، ومسألة الفن .. فهذه الميادين تنصب جميعا فى مفهوم الحياة . . فلم يكن الدين فى أول أمره إلا الأخلاق نفسها والقانون والفلسفة والدين . لقد كانت الأخلاق البدائية دينية ، وكان القانون البدائى دينياً ، ولم تنفصل الفلسفة ولا انفصل العلم عن الدين إلا فى عصور متأخرة . وإذا كان للمجتمعات كلها أديان تؤمن بها فما ذلك إلا لأن للدين ، فى الحالة الحاضرة ، منفعة عظيمة ، بل لأنه ضرورة حياتية ، لأنه وسيلة للبقاء والنماء . فان كل مجتمع من المجتمعات يحس إحساسا غامضا بشروط وجوده وتقدمه ، تقوده فى ذلك غريزة لا تخطىء ، فيوجد لنفسه حكومات وقوانين وعادات تضمن بقاءه وتعمل على نمائه ، ويوجد لنفسه كذلك اعتقادات وتصورات بصدد حياة الكون ، ومبدأ الأشياء ، ومصير الإنسان ، فى صورة تتفق مع مصلحته الإجتماعية ، وتنسجم مع شروط وجوده وتقدمه . واختلاف الأديان إنما يرجع خاصة إلى اختلاف النماذج الاجتماعية التى يتصور الانسانُ الكونَ على مثالها . وتتجلى الصفة الاجتماعية التى للدين ، فى أوضح صورة ، فى العبادات التى بواسطتها يتصل الإنسان بآلهته . إلا أن العبادة الدينية تزداد مع الزمن رهافة ومثالية ، فتحل العبادة الداخلية محل العبادة الخارجية ، ويحل التصوف محل الأسطورة . ويرى جويو أن الصفات الأساسية لكل دين هى : ١ — تفسير الطبيعة تفسيراً غيبيا ، وهذا التفسير الغيبى موجود فى الأديان الراقية نفسها إذ تؤمن بالمعجزات ، ٢ — مجموعة من الاعتقادات يعدها المؤمنون حقائق مطلقة ، ٣ — مجموعة من الطقوس والعبادات يعدونها ذات تأثير خارق للطبيعة . فاذا لم تتوفر هذه العناصر الثلاثة لم يحق لنا أن نتحدث عن الدين .

وهذا الدين صائر إلى الزوال. إلا أن زواله لا يتم فى صورة مباشرة ، ولا يأتى من الخارج . فهو ينتج عن زوال شروطه الحياتية الداخلية ، ويتم هذا الزوال بصورة تدريجية مع تقدم الصناعة والعلم والفردية فى الأخلاق . ولعل هذا العامل الأخير أقوى العوامل على الإطلاق . فانه يعمل على زوال الدين . وقد يدوم العمل على هذا التحلل مدة طويلة . إلا أن الأفكار لا تنقطع عن القيام بعملها .. فهى ماضية فى طريقها قدما . . وإن توقفت فى الطريق من حين إلى حين . . كجنود متعبين .

إلا أن (اللادين) لا يعنى (ضدّ الدين) . فما هو فى الواقع إلا درجة عليا من الدين تتهدم فيها العقائد ويبقى من الدين خير ما فيه . وخير ما فى الدين هو بعينه ما أوجد الدين — أعنى الرغبة فى تجاوز الواقعة العارية أو الوصول إلى ارتباط أعظم . إن الفكر الإنسانى أشبه بالسنونو. لم تُهيأ جناحاه لطيران يمس الأرض ، بل لانتفاضة جريئة عالية فى الفضاء الحر . وإنما المهم إذن أن ينهض . وهذا شاق ولا ريب . إلا أن رنوّه الأبدى إلى المثل الأعلى لا ينى يضع تحت جناحيه هواءً . وسيزداد هذا التطلع إلى المثل الاعلى قوة حين يتخلص من الدين . ولن يحتاج عندئذ إلى لغة محددة للتعبير عن الاسرار الخالدة . . . ستنطق هذه الاسرار من تلقاء نفسها .. وستكون الفروض الاخيرة متسمة بطابع فردى . . فكل امرىء يخلق إلهه ويخلق انجيله وتوراته .. وسيكون من الممكن أن تعيش هذه الإعتقادات المختلفة جنباً إلى جنب ، كما يمكن أن تعيش النباتات المختلفة فى أرض واحدة . . . أما العناصر الأخلاقية فى الدين فستظل قوية خالدة . حتى أن خيار الناس أصبحوا فى أيامنا هذه يوحدون بين الدين والحب — ليس شعورنا بازاء الحياة بسيطا ولا ثابتاً . إنه معقد غير مستقر . هذه لانهاية من السنين تنقضى فى تطور وتقدم ! فماذا خرج من ذلك كله ؟ خرج هذا العالم الذى نرى ، بما فيه من تمزق وتباين . . . وكلما ازداد اتحاد الإنسان بالوجود الكلى ، ازداد عذابه . . ألا إن الفكر عذاب ، لا نور فحسب . غير أن هذا الاتحاد بالكل يحمل دائماً طابع السمو ... ولن تكف القوة الغائضة الطافحة عن خلق الأمل ، والايمان ، وحب المخاطرة . . .

خاتمة : إذا كان الصدق ملهم الفلسفة الحقة فهو كذلك ملهم الفن العظيم .

وأول مايلفت نظرك فى مؤلفات هذا الفيلسوف الشاب الصدق المطلق . فهو يواجه المسائل فى جرأة عظيمة ، لاهم له إلا أن يقف فى حضرة الحقيقة كما يقف المؤمن فى حضرة الله :

• الحقيقة ، أعلم أنها تؤلم
• النظر ، أعلم أنه قد يميت
لاضير . . أنظرى ياعينى

وقد اجتمع إلى هذا الصدق قوة فى الفكر ، ورقة فى القلب . فإذا قرأت جويو شعرت شعورين قويين . فأنت أولا بازاء رشاقة طبيعة تشف ، كالبلّور ، عن نفس جميلة تبدو لك على حقيقتها سافرة عارية . . وأنت ثانياً ، إذا اتسع الأفق بعلو المسائل ، أمام فكر يسمو ويسمو حتى يقف وجهاً لوجه امام السر اللانهائى . إنه يفكر بعقله وقلبه . وهذا هو السر فى ذلك السحر الخاص الذى يفتن به قلوب من يقرءونه ، ولاسيما الشباب . وقد لايكون بين الفلاسفة من جعل الفلسفة مستساغه عذبة بدون أن تفقد شيئاً من عمقها ، مثل جويو . إنه يفكر ويكتب على طريقة ابن أثينا الذى ليست الحقيقة فى نظره إلا الإنسجام والجمال . غير أنه أثينى يعرف كونت ويعرف دارون وسبنسر ، ويشغف أشد الشغف بمسائل الحياة والمجتمع . وإنه لشغف معد ، يسرى إلى نفس كل من يقرؤه . إن أفكار جويو وبراهينه أقرب الى النجوى الصداقية منها الى الأفكار والبراهين . وكأنك حين تقرؤه تراه يحيا أمامك بكل مافى عينيه من حماسة وأسى معاً . وتحس أنه يحبك ، فما يسعك إلا أن تحبه ، ولا يسعك إلا أن ترددمع الشاعر العظيم : مجنون من يعتقد أننى لست أنت.

هذا هو جويو الفلسوف الشاعر الذى يمهله الموت حتى يتم الثالثة والثلاثين من عمره ، واخترمه وهو لمايزل فى ريعان شبابه . ولقد كان كل شىء السنوات الأخيرة من حياته يبسم له . الحب المتبادل ، فقد أُحب وأُحب . . والرفاه المادى ، فقد توفر له الكثير من أسباب الرخاء . . والشهرة الآخذة بالتزايد ، فقد أعجب به كل من قرأه ، وصفق له كبار المفكرين فى عصره ، حتى من يخالفهم فى الرأى . إلا أن النقطة السوداء فى حياته كانت تلك الصحة المتأرجحة المتذبذبة التى أصبحت مهددة من زمان بعيد.

وقد عانى فى الأشهر الأخيرة هزالا مريعا، فكان يرى قواه تنسل منه يوما بعد يوم، ويرى الموت مقبلا إليه حثيث الخطى . وما كان يخشى الموت ، بل كان ينتظره «واقفا» على حد تعبيره . وكان كل همه ، على ما يحدثنا زوج أمه ، الفيلسوف الكبير ألفرد فويه الذى صحبه فى أسفاره ، وسهر على صحته سهر الأب الرحيم ، أن يخفى آلامه عن ذويه حتى لا يسبب لهم ألما .

وكان جويو ، بعد أن نشر ديوانه «أشعار فليسوف» ، قد هجر لغة الشعر . إلا أنهم وجدوا بين أوراقه قصيدة بعنوان «موت الصرصور» ، لم تفسح له المنية مجال صبها فى الصيغة الأخيرة . إنها وداع للشعر تحس فى ثناياه وداعا للحياة .

عند الفجر . . . كان لا يزال يغنى
وريح الشمال . . . تهب نسمات باردة
فيحسبها المسكين . . . عودة الربيع

وشاعرتنا الحشرة . . . لا ترى الربيع مرتين
فما هى إلا لحظات . . . حتى مات صوتها . . . فى السهل الأصم
وكبا البريق . . . من الجناح الأشقر .

وما أتى المساء . . حتى انطفأت عيناها
وسقطت على الأرض . . . عارية

ها هى ذى فى طريقى . . ميتة
تلك التى غنت . . الصيف كله
وهذا هو الريح . . يذرى قلبها . . هشيما

أيتها المغنية . . . التى أماتها يوم من برد
ما أشبهك بشبابى . الذى كان يغنى
والذى يوشك أن يموت . .

وفى الواحد والثلاثين من مايو ١٨٨٨ انطوت آخر صفحة من هذه الحياة الشابة الخصبة .

القاهرة فى ٥ يوليو سنة ١٩٤٦

المترجم

مقـــدمة المؤلف

قال أحد المفكرين : غاية التربية هى أن تلقى فى روع الإنسان فكرة الخير فى فى صورة «حكم سابق» . وتبين لنا هذه العبارة الأساس الذى تقوم عليه الأخلاق العادية . أما بالنسبة إلى الفيلسوف ، فما يجب أن يكون فى السلوك عنصر واحد لا يحاول الفكر أن يفسره ، وما ينبغى أن يكون ثمة واجب لا يبين عن علله ومبرراته .

ونريد فى هذا الكتاب أن نبين ما هى ، وإلى أى حد يمكن أن تمضى، الأخلاقُ التى لا يكون فيها للحكم السابق أى نصيب ، بل يكون كل شىء فيها معقولا ، مقدراً قدره الحقيق ، إن بيقين قاطع أو برأى أو فرض محتملين . ولئن لم ينجح معظم الفلاسفة (حتى فلاسفة المذهب النفعى والمذهب التطورى والمذهب الوضعى) فى مهمتهم تمام النجاح ، فلأنهم أرادوا أن يقدموا أخلاقهم على أنها مطابقة تقريباً للأخلاق العادية ، وأن لها نفس « الاتساع » ، وأنها فى قواعدها أمرية مثلها تقريبا . وهذا مستحيل . فإن العلم ، حين هدم عقائد الأديان المختلفة ، لم يطمع فى أن يحل محلها جميعاً ، ولا أن يقدم مباشرة للحاجة الدينية موضوعا محدداً وغذاء معيناً . وموقفه بإزاء الأخلاق كموقفه بإزاء الدين . فلا شىء يدل على أن من الواجب على أخلاق علمية محضة، أى على أخلاق قائمة على أساس ما نعلم فحسب، أن تنطبق على الأخلاق العادية المؤلفة فى جزء كبير منها من أشياء نحسها أو نعرفها فى صورة حكم سابق . وقد اضطر بنثام وأتباعه من بعده ، حتى يطابقوا بين الأخلاق الأولى والأخلاق الثانية ، إلى قسر الوقائع . وأخطأوا . فضلا عن أن الممكن أن نتصور أن لايكون نطاق البرهان العقلى مساوياً فى اتساعه لنطاق العمل الأخلاقى ، وأن يكون هنالك حالات قد نعجز فيها عن إيجاد قاعدة عقلية يقينية . وقد كانت التقاليد والغريزة والعاطفة حتى الآن هى التى تقود الإنسان فى سلوكه الأخلاقى . ومن الممكن أن نتبعها كذلك فى المستقبل ، شريطة أن نعرف ما نعمل حق المعرفة، وأن نعتقد حين

تتبعها أننا لا نخضع لإلزام غيبي، بل لاندفاعات كريمة فى طبيعة الإنسان، وضرورات عادلة فى الحياة الاجتماعية .

وليس يضير علماً من العلوم ، كالأخلاق مثلا ، أن نبين أن موضوعه (كعلم) محدود . بل إن الأمر على نقيض ذلك . فنحن حين نضيق علما من العلوم ، إنما نكسبه فى معظم الأحيان قدراً أكبر من صفه اليقين. فما الكيمياء إلا علم الصنعة بعد أن ضاق حتى صار لا يشمل إلا الوقائع التى يمكن ملاحظتها . وفى اعتقادنا كذلك أن الأخلاق العلمية المحضة ما ينبغى لها أن تطمع فى أن تشمل كل شىء ، بل يجب ، على العكس ، أن تحاول تحديد ميدانها لا أن تبالغ فى توسيعه . يجب أن ترضى بأن تقول بصراحة: إننى فى هذه الحالة لا أستطيع أن آمركم بشىء قطعى باسم الواجب . فلا إلزام ها هنا ولا جزاء ؛ فارجعوا إلى العميق من غرائزكم : ارجعوا إلى ميلكم الطبيعى ، ونفوركم الطبيعى الإنسانى ، وتصوروا بعد ذلك فروضاً ميتافيزيائية بصدد حقيقة الأشياء ومصير الكائنات ومصيركم الخاص ، وكونوا حكام أنفسكم بأنفسكم — فتلكم هى الحرية فى الأخلاق ، حرية ليس قوامها فقدان كل قانون، بل توقف القانون حيث يعجز عن التبرير تبريرا كامل الإحكام. وعندئذ يبدأ فى الأخلاق نصيب النظر الميتافيزيائى الذى لا يستطيع العلم الوضعى أن يزيله ولا أن ينوب عنه تماما. فحين يقطع المرء جبلا من الجبال يتفق له فى لحظة من اللحظات أن تلفعه السحب التى تغشى القمة ، فيغيب فى الظلمات . فكذلك الأمر فى الذرى العاليات من الفكر . إن قسما من الأخلاق يختلط بالميتافيزياء ، وقد يظل إلى الأبد محتفياً بين السحب . إلا أنه لابد أن يكون له كذلك أساس وطيد ، وأن نعلم ، على وجه الدقة ، النقطة التى ينبغى للمرء فيها أن يمتنع عن الدخول فى السحاب .

ثلاثة كتب هى فى رأينا أهم ما ظهر أخيراً فى الأخلاق : (The data of ethics) لسبنسر فى انجلترا ، و (La phénoménologie de la concience morale) لهارتمان فى ألمانيا ، و(La critique des systèmes de morale comemporaine)

لفوييه فى فرنسا . وقد خرجنا من هذه المؤلفات الثلاثة المختلفة النزعة برأيين أولهما أن الأخلاق الطبيعية والوضعية لا تقدم لنا مبادىء ثابتة لا بصدد الإلزام ولا بصدد الجزاء ، وثانيهما أنه إن استطاعت الأخلاق المثالية أن تقدم لنا شيئا من هذا ، فذلك على سبيل الفرض لا القطع . أى بتعبير آخر إن ما هو من مرتبة الوقائع ليس عاما ، وما هو عام إنما هو فرض نظرى . وينتج عن ذلك أن الأمر من حيث هو مطلق قطعى ، يزول من الناحيتين . ونحن ، من جهتنا ، نقبل هذا ، ولا نأسف للتنوع الأخلاقى الذى ينتج عنه فى بعض الحدود ، بل نرى ، على العكس أنه أخص خصائص الأخلاق فى المستقبل . ونحن نخالف آراء دى هارتمان المتعالية فى قوله بجنون إرادة الحياة ، وبالنرفانا المفروضة على العقل كواجب منطقى ، ونرى أن الباعث على السلوك الأخلاقى إنما هو الحياة الشديدة ، العنيفة ، الواسعة ، المتنوعة ... وإن كنا نتصور التوفيق بين الحياة الفردية والحياة الاجتماعية على نحو آخر . ونحن نوافق مؤلف « نقد المذاهب الأخلاقية المعاصرة » على قوله بأن المدرسة الانجليزية والمدرسة الوضعية اللتين تسلمان بوجود «ما لا تمكن معرفته» قد أخطأتا فى تحريم كل فرض فردى بصدده . غير أننا لا نعتقد معه أن « ما لا تمكن معرفته » يمكن أن يقدم لنا مبدأ « محدّدا للسلوك من الناحية العلمية » مبدأ عدالة صرفة هو وسط بين الامر القطعى الذى قال به كنت وبين الفرض الميتافيزيائى الحر . وفى رأينا أن « المعادلات » « أو المعوضات » الوحيدة المقبولة للواجب ، على حد تعبير مؤلف « الحرية والجبر » هى ما يأتى :

١ — الشعور بقدرتنا الداخلية العليا ، التى سنرى أن الواجب يرتد إليها عمليا .

٢ — تأثير الأفكار فى الأفعال .

٣ — امتزاج العواطف امتزاجا آخذا بالتزايد ، وكون لذاتنا وآلامنا ما تنفك تغدو أكثر اجتماعية .

٤ — حب المخاطرة فى العمل ، مما سنبين خطره الذى ما يزال إلى الآن مجهولا .

٥ — حب الفرض الميتافيزيائى ، الذى هو نوع من المخاطرة فى التفكير .

فى رأينا أن هذه البواعث المختلفة،مجتمعة ، هى كل ما تستطيع الأخلاق المعتمدة على الوقائع ، وعلى الفروض التى تكمل هذه الوقائع ، أن تحله محل الإلزام القطعى القديم . أما الجزاء الأخلاق ، بالمعنى الأصلى للكلمة ، المستقل عن الجزاء الاجتماعى ، فسوف ترون أننا سنحذفه أصلا ، لأنه فى حقيقته غير أخلاقى من حيث هو « تكفير ». فيمكن أن يعد كتابنا إذن محاولة فى تحديد مجال الاخلاق العلمية المحضة ، وفى تعيين مداها وحدودها أيضا ؛ وبالتالى فان قيمته تظل باقية مهما تكن الآراء التى نكونها عن الحقيقة المطلقة الميتافيزيائية للتخلق .

مانتون ؛ سبتمبر ١٨٨٤